# نصوص مختارة فى علم النفس

## مناهج البحث فى علم النفس[1]

### المنهج الذاتى

يمكن للوقائع النفسية أن تجمع أولا بوساطة المنهج الذاتى ( الذى يسمى أيضاً بالمنهج الباطنى أو الاستبطانى ) ، و هو ملاحظة الشخص نفسه . وما تبلغه هذه الملاحظة هو ما يعرفه الشخص مباشرة ، ويعرفه وحده على هذا النحو ، أى حالاته الشعورية ، والتأثيرات التى يحياها ، تأثيرات نفسه ، وتأثيرات الأشياء .

فإدراك صوت أو لون هو الحصول على خبرة مباشرة ببعض الخصائص الحسية كصوت الناى ولون السماء الأزرق . والفرد لا يعرفها على هذا النحو إلا عن طريق هذه الخبرة فالمولود أعمى أو أصم سيبقى أبداً على جهله بها . وكذلك الشعور بانفعال كالخوف مثلا . هو ، بكيفية ما ، معرفة هذا الخوف ، على أقل تقدير ، فى الصورة التى تنكشف تكشفاً مباشرا للشخص من جراء خوفه . وعند ما أتذكر ، أعلم مباشرة أننى أفكر فى ماضى الخاص ، فى هذا الحادث أو ذاك الذى وقع لى فى الماضى الذى أختبره من جديد فى بعض نواحيه اختباراً داخلياً . وفى إمكانى وحدى دون غيرى أن أدرك مباشرة ماذا يحدث فى ذهنى فى مثل هذه اللحظة . ففى هذه الأمثلة ، يكون إدراكى وانفعالى وتذكرى بمثابة حالاتى الشعورية ، أى نوع من عالم مغلق أعرفه معرفة فريدة ممتازة .

---

(١) Paul Guillaume ; Psychologie, pp. 4-8 Alcan, Paris 1931

بول جيوم : ولد سنة ١٨٧٨ ، استاذ علم النفس بجامعة باريس . ومن مؤلفاته : المحاكاة لدى الطفل ١٩٢٥ ـ ترجمة كتاب كهلر : الذكاء لدى القردة العليا ١٩٢٧ ـ علم النفس ١٩٣١ ـ تكوين العادات ١٩٣٦ ـ سيكولوجية الصيغة ١٩٣٧ وهو عرض واف واضح لنظرية « الجشطلت » ولأهم التجارب التى قام بها علماء هذه المدرسة ـ علم النفس الحيوانى ١٩٤٠ ـ مدير مجلة علم النفس الفرنسية Journal de Psychologie ويساهم فى تحرير « السنة السيكولوجية » والمجلة الفلسفية كما أنه ساهم فى تحرير الجزء الثامن من دائرة المعارف الفرنسية الخاص بالحياة العقلية سنة ١٩٣٨ .

المنهج الموضوعى

وبدلا من أن يلاحظ الشخص نفسه ، يمكنه أن يلاحظ غيره من الأشخاص كما يلاحظ أى موضوع من الموضوعات الأخرى . ومن هنا جاءت تسمية هذا المنهج بالمنهج الموضوعى ☆ فالملاحِظ هنا هو غير الشخص الملاحَظ . وما يلاحظه هو وقائع فيزيقية . أى ، من جهة ، الموقف الفيزيقى الذى يحيط بالشخص الملاحظ ، ومن جهة أخرى تصرفه أو سلوكه إزاء هذا الموقف ☆ وعلى خلاف الحالات الشعورية الفردية ، يمكن لأكثر من شاهد واحد أن يشاهد هذه الوقائع الفيزيقية ، كما أنه يمكن ضبط ملاحظات كل شاهد بملاحظات غيره . وفى وسع الشخص أن يدرس نفسه دراسة موضوعية جزئية بملاحظة ما يصدر عنه من حوادث فيزيقية كالكلام والحركات التى يمكن لغيره كذلك أن يدركها .

ولنعد الآن إلى الأمثلة السابقة . فالمقصود من دراسة الحساسية ☆ فى أى شخص آخر هو مجرد ملاحظة استجاباته ☆ الخاصة ( كالحركات والأوضاع والأفعال المعقدة المتمايزة والألفاظ ) عند ما يتعرض لتأثير بعض المنبهات كالإشاعات الضوئية والأمواج الصوتية ومختلف أنواع التماس الميكانيكى . وليس المقصود أن يشعر الملاحِظ بما يشعر به الشخص الملاحَظ أثناء هذه الظروف .

وكذلك نقصد بملاحظة انفعالات شخص آخر أن نلاحظ أنه فى بعض الظروف ، كمواجهته مثلا لحيوان ضار ، يشحب وجهه وترتعد يداه وتهبط زاويتا فمه ، فيفر هارباً لكى يختبىء أو يظل واقفاً لا يتحرك ، محدقاً بذهول فى الشىء المرعب .

وكذلك عند ما نريد التأكد من أن شخصاً آخر يسترجع ذكرى من الذكريات ، نبحث فى سلوكه الراهن عن آثار حادث وقع له فى الماضى . ففى إمكان الإنسان أن يستفيد من الخبرة المكتسبة وأن يتبصر فى عواقب الأمور وان يتفادى الوقوع فى نفس الأخطاء وأن يعترف بالجميل أو يحاول الانتقام لما أصابه من ذل وهوان . فقد يشحب الوجه لذكرى الخطر ويحمر لذكرى الإثم . وإن تذكر الطريق هو الاهتداء إليه بسهولة وتذكر الدرس هو تسميعه بدون خطأ لخ . . . وكذلك يمكن الاستدلال على النسيان بعكس تلك المظاهر السلوكية . والقيام بهذه الملاحظات على شخص آخر يؤدى إلى معرفة عملية التذكر معرفة لها أهمية كبرى من الوجهة العملية . وليس المقصود أن يشعر الملاحِظ بما يشعر به الشخص الذى يتذكر .

العلاقة بين المنهجين

يبدو إذن مما سبق أنه يوجد خلاف كبير بين الموضوعات التى يتناوله كل من هذين المنهجين ، ويتوقف على ذلك اختلاف فى تعريف الظاهرة السيكولوجية . فتبعاً للمنهج الذاتى تكون الظاهرة السيكولوجية الحالة الشعورية التى يحياها الشخص . فى حين أنها تبعاً للمنهج الموضوعى السلوك فى صلته بالموقف كما يظهر للملاحظ الخارجى . ولكن على الرغم من اختلاف الأسلوب فى معرفة الظواهر السيكولوجية ، فهناك تضامن وثيق بين الحالة الشعورية والسلوك الخارجى ؛ ولكن إلى أى حد يمكن اعتبار المنهجين مستقلين حقاً بعضهما عن بعض ؟

المنهج المشترك أو المنهج الإسقاطى

كثيراً ما يعتبر المنهج الذاتى جوهرياً ، وتعريف الواقعة السيكولوجية بإرجاعها إلى الشعور ، التعريف الصحيح دون غيره . فى حين لا يعتبر المنهج الموضوعى إلا وسيلة إضافية تساعد على توسيع النتائج التى تسفر عنها الملاحظة الذاتية . وليس السلوك ☆ فى هذه الحالة سوى أمارة أو وثيقة يجب تأويلهما ، ويصبح الغرض من استخدام المنهج الموضوعى إعادة تركيب الحالات الشعورية التى يختبرها الآخرون

والواقع أننا نلاحظ فى الأمثلة السابقة التى قصدنا بها مجرد وصف السلوك وصفاً موضوعياً ، أن بعض الألفاظ التى استخدمناها تتضمن تأويلات ذاتية . فعندما ندرس الحساسية عن طريق الاستجابات ، نعنى بالحساسية أمراً آخر غير ما نعنيه عندما نتحدث عن حساسية آلة من آلات الوزن ، اذ أننا نفرض وجود حالة شعورية

وفى وصفنا الموضوعى للخوف هل عبارة « حيوان ضار » تعبر عن مجرد خاصيه فيزيقية أم عن التأثير الذى يحدثه هذا الحيوان فى شعور المشاهد . وليس الهرب أوالتوارى مجرد القيام ببعض حركات ، بل تفيد هذه الحركات أن الخائف يريد ☆ الابتعاد عن عدوه والتوارى عنه . كيف إذن يمكننا الوقوف على حالات الآخرين الشعورية إذا لم نعتمد على ما أطلعتنا عليه الملاحظة الذاتية . فإننا نفرض فيهم حالات داخلية مماثلة على أقل تقدير لما كنا لنشعر به لو وجدنا فى نفس الموقف . وفى هذه الحالة لكنا سلكنا نفس مسلكهم . فإذا فهمنا المنهج الموضوعى بهذه الكيفية ، يصبح المنهج الذاتى أساساً له . فالمنهج الموضوعى هو بمثابه إسقاط ☆ حياتنا الداخلية الخاصة على غيرنا من الناس . ويستند هذا الإسقاط إلى ما نلاحظه من مماثلات خارجية .

المنهج الموضوعى البحت

ولكن هل يمكن تطبيق مثل هذا المنهج الإسقاطى فى جميع الحالات . فالإسقاط عملية طبيعية وصحيحة عندما يكون الملاحِظ والشخص الملاحَظ جد متشابهين من حيث التركيب الجسمى والسلوك . ولكن كلما ضعفت أوجه المماثلة بين أشكال التركيب والسلوك ازدادت عملية الوقوف على حالات الآخرين الشعورية غموضاً وإشكالا . لا شك أنه يحق لنا من الوجهة الفلسفية أن نسلم بنوع من الاطراد والتواصل بين جميع الأشخاص ولكن مثل هذا الأفتراض يصبح ناقصا إذا نظرنا إليه من الوجهة العلمية . إذ أن العالم يرمى قبل كل شىء إلى أن يكون وصفه للوقائع يقينياً دقيقاً . وثمة جملة من المشكلات تستلزم منهجاً موضوعياً بحتاً . وفى هذه الحالة يقتصر على ربط الاستجابات بالمواقف التى تثيرها ، بوساطة قانون قد يصل الى درجة كبرى من اليقين والدقة ، مع الامتناع التام عن كل تأويل ذاتى

ومثل هذا الاتجاه فى البحث منهجى بحت ، إذ أنه لا يتضمن أى إنكار لما يشعر به الآخرون من حالات داخلية . ولا يرجع عدم التحدث عن هذه الحالات الداخلية إلا إلى افتقارنا الى وسيلة تسمح لنا بمعرفتها . فما نقوم به فى الواقع هو مواجهة المشكلة من حيث يمكن مواجهتها .

فعلم النفس الحيوانى لا يستخدم سوى هذا الضرب من المنهج الموضوعى . فالمحارة ( حيوان بحرى صدفى ) تتقلص عندما نسقط على جسمها نقطة من الحامض . ففى وسعى أن أعرف بدقة قانون هذه الظاهرة ، لا كيفيه الحالة الشعورية التى قد تكون مصاحبة لها.

وفى كثير من مسائل علم النفس البشرى يكون السلوك ، دون كيفية الحالة الذاتية ، العنصر المتين الدقيق لإقامة معلوماتنا ؛ ولنا من دراسة النماذج ☆ الفردية دليل على ذلك . فعندما نحكم على شخص آخر أنه ذكى أو أنانى أو مخلص أو متكبر أو محتال أو قاس الخ . فما نقصده خاصة هو أنه يسلك فى بعض الظروف سلوكا سبق لنا مشاهدته وتعلمنا توقعه والتنبؤ به . وكل ما أصابه علم النفس الحديث من تقدم يبين لنا بجلاء مدى الخطأ الذى نقع فيه إذا اعتمدنا على ما تقدمه لنا الملاحظة الداخلية من معلومات خاصة بالإنسان البالغ المثقف السوىّ ☆ للوصول إلى معرفة الطفل والإنسان البدائى والشاذ ☆.

وفى ضوء المنهج الموضوعى البحت ، لا يكون تأويل الملاحظات إعادة تركيب الحالة الشعورية للشخص الملاحَظ ، بل إعادة تركيب مجموعة من الوقائع الموضوعية ابتداء من بعض عناصرها . . . فمعرفة الحساسية هى توقع ما تحدثه منبهات معينة من استجابات . وتأويل الشحوب كعلامة للخوف هو توقع سائر الحركات والأوضاع المميزة للخوف . وإثبات حقيقة الذكرى هو تحديد ضروب السلوك المميزة للذكرى مع مراعاة المواقف المختلفة المرتبطة بهذه الضروب السلوكية . والملاحظة الخارجية هى التى سمحت لنا ، بتتالى الحالات السابقة المتشابهة ، بإقامة هذه المجموعات من الوقائع المتضامنة . ومثل هذا المنهج عام ، مستقل عن الملاحظة الذاتية ويمكن تطبيقه على السواء فى الكائنات الشبيهة بنا أو المختلفة عنا مهما كان مدى الاختلاف كبيراً .

عن جيوم : علم النفس ص . ٤ — ٨ .

## المنهج الموضوعى فى علم النفس[1]

إن تحديد موضوع أحد العلوم ومنهجه ليس بحثاً من بحوث العلم بل هو بحث من بحوث الفلسفة ، ومن اليسير أن يتحاشى المرء علاج هذه المسألة التى تتصل بفلسفة العلوم ونظرية المعرفة ورغم أن الفلسفة العامة فى تعرضها لعلم النفس تواجه هذه المشكلة ، إلا أنه من الواضح أن الحلول التى تصل إليها لا تغير شيئاً لا فى الوقائع ولا فى القوانين التى

(١) Henri Piéron : Psychologie expérimentale, pp. 12-16. Colin, Paris 1927

مترجم هذا النص الأستاذ اسحق رمزى

هنرى بييرون : ولد سنة ١٨٨١ ، أستاذ علم النفس الفسيولوجي فى «الكوليج دي فرنس» مدير معمل علم النفس فى جامعة باريس ، مدير معهد التوجيه المهنى ، رئيس قسم العلوم الطبيعية فى مدرسة الدراسات العليا بباريس .

ومن أهم مؤلفاته : كيفية إجراء التجارب في معامل علم النفس التجريبى ، بالاشتراك مع طولوز Toulouse — تطور الذاكرة ، ١٩١٠ — مشكلة النوم من الوجهة الفسيولوجية ١٩١٢ — الدماغ والفكر ، ١٩٢٣ ، وله ترجمة انجليزية — علم النفس التجريبى ١٩٢٧ ، وله ترجمة انجليزية — النمو العقلى والذكاء ١٩٣٠ — حساسيات البشرة ١٩٣٢ — المعرفة الحسية ومشكلات الإبصار ١٩٣٦ — مدير « السنة السيكولوجية » منذ ١٩١٣ ، سكرتير عام دائرة المعارف العلمية للناشر Doin ، ساهم فى تحرير « الموسوعة الفسيولوجية » للناشر Masson ، والموسوعة السيكولوجية الجديدة للناشر Alcan ، كما أنه ساهم فى تحرير الجزء الثامن من دائرة المعارف الفرنسية الخاص بالحياة العقلية ، ١٩٣٨ .

يؤدى إليها البحث التجريبى . غير أنه لما كان الانفصال بين الفلسفة وعلم النفس لم يتحقق بأكمله ، بل بقيت بينهما بعض الوشائج قائمة ، كان هذا مدعاة إلى عدم التصريح لأصحاب علم النفس بالتحدث عن أعمالهم قبل أن يسوغوا أولا حق علمهم فى التمتع بكيان خاص لا ينازعهم فيه منازع . ولو أن المرء رأى إلى جهود أول من وضعوا نظريات علم النفس التجريبى مثل فوندت وريبو ورأى إلى جهدهم فى إثبات نطاق خاص لعلمهم ، علماً لظاهرات الشعور ، أو على الأقل لظاهرات ذات وجهين ، لاستطاع المرء أن يدرك ما يبرر التعرض لهذا الحديث : فالعلوم الطبيعية الأخرى تتعرض لظاهرات موضوعية ، وها نحن بصدد علم يزعم أنه علم من هذه العلوم ، ويؤكد أنه يضع قوانين لظاهرات ذاتية فى صميمها الأمر الذى ينكره أوجست كومت ويجد أنه على حق فى ذلك . غير أنا هنا نجد أنا فى الواقع بصدد وهم خاطىء بالغ الخطأ .

فلنر إلى الأمر عن كثب . أشاهد مصدراً مضيئاً مزوداً بستار لا ينفذ منه سوى لون واحد يسمح بالمرور لمجوعة من الموجات التى يقرب طولها من ٥٥٠ مليمكرون . فأحس بتأثير شعورى خاص ، وأقول لصاحبى الذى يستطيع أن يدون ذلك أنى قد أدركت « أخضر » ، وأقيد أنا هذه الملاحظة ، للمستقبل ، وينظر صاحبى بدوره ويعلن أنه هو أيضاً يدرك « أخضر » . ثم أشرع فى استخدام أستار أخرى ، فى ظروف أخرى ، وأواصل أنا فى تدوين الأحوال التى أبصر فيها أنا وصاحبى اللون الأخضر .

وعلى هذا المنوال أقوم بدراسة إحساس ☆ اللون الأخضر ، الذى أعرف بوساطة الخبرة * الخاصة أنه إحساس أدركه وأشعر به . وأسلم بوساطة المماثلة ، أن لدى صاحبى مثل ذلك الإحساس ، غير أنى لا أملك أى وسيلة أستطيع أن أعرف بها ذلك أو أعرف بها على الأخص ما إذا كان التأثر الذى يشعر هو به مطابقاً تماماً لما أشعر به أنا . بل كل ما أعرف هو أنه إذا ما وضع فى عين الظروف إستخدم عين الألفاظ التى استخدمها واستجاب على المنوال الذى أستجيب به . لكنا قد نقع على شخص آخر ، يقول إنه يرى اللون الأخضر فى ظروف لا نراه فيها لا صاحبى ولا أنا ، وإذا بى أوفق إلى الكشف عن نقص محقق فى إبصار ذلك الشخص للألوان .

وأعرف أنى لو كنت مصاباً بالعمى اللونى لا أحس بالألوان — ويمكن أن يلحقنى ذلك مؤقتاً إذا خطف بصرى (زغللت عيناى) ، كما يلحقنى ذلك دائماً فى الضوء الضعيف — أعرف أنى رغم ذلك أستطيع دراسة إحساس اللون الاخضر وإبصار الألوان عن طريق الاستجابة اللفظيه .

واذا أنا فقدت فى وقت معين القدرة على الإحساس بالألوان سواء أدركت هذه الألوان أو تصورتها ، وفقدت فى نفس الوقت القدرة على أن أستجيب بطريقة نوعية لمختلف المنبهات الضوئية ،لبقيت أعلم على الرغم من ذلك ، بفضل ما دونته من الاستجابات اللفظية أننى كنت أدرك اللون الأخضر بتأثير بعض الموجات .

وهكذا تعرض طائفة من الدراسات السيكولوجية — رغم صلتها بظاهرات الشعور — لأشكال خاصة من النشاط والسلوك وتغيرات الاستجابة اللفظية على الأخص .

وليس من شك أن كل شىء بالنسبة لى إن هو الا تأثر أشعر به سواء كنت أبحث فى الطبيعة أو الكيمياء أو علم النفس . غير أن كلمة الأخضر أو كلمة الإحساس عند غيرى ليس لها حتما عين المعنى الذاتى الذى يكون لكلمة المكعب أو لكلمة الدرّة .وإنى لأستطيع بطرائق للتدريب ، تتضمن استجابات خاصة لمؤثرات ضوئية من اشعاعات مختلفة استخدمها بدلا من الاستجابات اللفظية التى تكتسب أثناء التدريب الاجتماعى ، أن أقوم بدراسة إبصار الألوان عند الحيوان . وقد يكون عند الحيوان تأثر شعورى بذلك ، غير أنى لا أستطيع الحزم بهذا على أى وجه من الوجوه ، وقد تكون تلك التأثرات مماثلة تماماً من حيث الكيف لما أشعر به أنا من تأثرات ، لكنه لا أهمية لذلك إطلاقاً . بل أن المهم هو أنه عند وقوع مؤثرات خاصة تقع استجابات خاصة ملائمة تظهر وتختفى فى الظروف المماثلة . ومن ثم كان يكفينا اتفاق أشكال السلوك ، دون حاجة الى التماس الاتفاق فى عمليات خافية تستعصى على البحث استعصاء تاماً .

أستطيع أن أتتبع فى نفسى تغير حالات الشعور ، غير أنى إذا ما أردت أن أعبر عنها وأن أدوّنها ، كان لزاما على أن استخدم الرموز* اللفظية التى تلقيتها من المجتمع ؛ ودلالة هذه الرموز ، التى يتناولها الأفراد بعضهم عن بعض ، لا يمكن أن تقوم إلا على ظاهرات يستطيع الكافة إدراكها ، أى على ظاهرات موضوعية . فإذا كانت أم مع صغيرها وأشارت الى حيوان أو إنسان يتألم لربطت بذلك لفظ الألم بصنوف من أسارير الوجه ومن الحركات والأفعال والأوضاع والأقوال التى يدركها ابنها فى نفس الوقت الذى تدركها هى فيه ، حتى اذا ما شعر الطفل يوماً بالألم عرفه بوساطة التشابه بين الاستجابات التى تصدر عنه والاستجابات التى سبق أن رآها ، أنه يستطيع استخدام لفظ الألم للتعبير عما يشعر به . أما الحالات الذاتية الخالصة ، التى لا يكون لها أى أثر معين يمكن أن يكون موضوعاً للادراك فإن الوسائل الرمزية التى قد أستخدمها للتعبير عنها لا تصلح للاستعمال لأنه لا يكون لها دلالة تصلح للتبادل ؛ ويمكن أن نحاول إثارة هذه الحالات النفسية الدقيقة التى

تعجز الألفاظ عن التعبير عنها ، عن طريق العدوى الوجدانية ، كالتعبيرات الموسيقية مثلا؛ غير أنا لا نستطيع أن نقيم منها علماً . ذلك لأن العلم يمثل فى الواقع مجموعة من التجارب التى يمكن تبادلها ، هذا إلى أنه ، بما يتصف به من خصائص اجتماعية جوهرية، لا يعجز فحسب عن تضمن المفرد وما لا يمكن تناقله ، بل هو لا يمكن أن يحفل بما يمتنع على التعبيرعنه تعبيراً موضوعياً . وما لا يمكن أن يصبح موضوعاً للتجربة الجمعية ومالا يمكن أن يكون مصدراً للمبادلات الاجتماعية .

فليس هناك من علم إلاعلم السلوك والنشاط والاستجابات الشاملة التى تصدر عن الكائن الحى من حيث هو وحدة ، وهذا هو علم النفس؛ وهو يختلف عن علم وظائف الأعضاء ( الفسيولوجيا ) ✲ الذى يعرض للحركات الجزئية ولنظم الاستجابة المحدودة .

عن بيرون : علم النفس التجريبى ص ١٢ — ١٦

## نقص الملاحظة الداخلية[١]

إذا أردنا أن نقف على معنى الشخصية الحقيقية الواقعية ، لاعلى أمر مجرد نستبدله بها، فلاينبغى على المرء أن ينطوى على شعوره وأن يغلق عينيه وأن يلح فى استجواب نفسه ؛ بل ينبغى على النقيض من ذلك أن يفتح عينيه وأن يشرع فى الملاحظة . فالطفل والفلاح والعامل وأولئك الملايين من الناس الذين يذرعون الطرقات أو الحقول ، أولئك الذين لم يترام إلى أسماعهم البتة حديث عن فيخته أو مين دى بيران[٢] . أولئك الذين لم يقرأوا شيئاً قط عن الذات ✲ وغير الذات ، بل لم تقع أبصارهم على سطر واحد من علم النفس ، لكل واحد من أولئك جميعاً شخصية واضحة جلية يقرها بفطرته فى كل حين . ومنذ تلك الفترة التى لفتها غيابة النسيان ، تلك الفترة التى تكونت أثناءها الذات ، أى ظهرت

---

(١) Th. Ribot : Les maladies de la personnalité, pp. 86-90
مترجم هذا النص الأستاذ اسحق رمزى .

ريبو : ١٨٣٩ — ١٩١٦ ، أول من وجه علم النفس فى فرنسا توجيها علمياً تجريبياً وطبق بنجاح المنهج الباتولوجى فى الدراسات السيكولوجية (تحليل سيكولوجى للامراض العقلية والنفسية)، مؤسس المجلة الفلسفية سنة ١٨٧٦ . وله عدة مؤلفات أهمها : الوراثة السيكولوجية ، علم النفس المعاصر فى إنجلترا وألمانيا ، أمراض الذاكرة والإرادة والشخصية ، الانتباه ، العواطف ، تطور المعانى الكلية ، المخيلة المبدعة ، منطق العواطف ، الحياة اللاشعورية والحركات .

(٢) فيخته Fichte فيلسوف ألمانى مثالى ١٧٦٢ — ١٨١٤. مين دى بيران Maine de Biran فيلسوف فرنسى برع فى الملاحظة الذاتية ١٨٦٦ — ١٨٢٤ .

كمجموعة متناسقة بين ثنايا الأحداث التى تهاجمها وتتنازعها من كل صوب ، تماسك هذه المجموعة دون انقطاع مع عملها أبداً على التحول والتغير . وهى تتكون إلى حد كبير ، من الحالات والأفعال التى تكاد أن تكون آلية * والتى تقيم عند كل منا شعوره ببدنه وبوتيرة الحياة ، وتقوم عماداً لكل ما عداها ، لكنها سرعان ما تشعر بأى تغير يلحقها حتى لو كان جزئياً فصيراً . وهى تتكون إلى حد كبير أيضاً ، من مجموعة من الإحساسات والصور والمعانى التى تمثل الوسط المألوف الذى يعيش فيه المرء ويتحرك، إلى جانب الذكريات التى تتصل به . ويمثل هذا كله حالات منظمة ، وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ويثير بعضها بعضاً ، وتكون وحدة متماسكة . ونحن فى هذا نقرر الأمر كما هو فى الواقع دون أن نستقصى السبب . وكل ما هو جديد غير مألوف سواء أكان تغيراً فى حالة البدن أم فى الوسط الذى يوجد به يقتبس دون تردد أو يصنف على الفور باعتباره جزءاً من الشخصية أو باعتباره أمراً خارجاً عنها . ولا تقع هذه العملية فى كل لحظة بوساطة حكم واضح مميز بل بوساطة منطق لا شعورى أعمق كثيراً من الآخر . فإذا كان من اللازم أن أعبر بلفظ عن هذا الوجه الطبيعى التلقائى الحقيق من وجوه الشخصية لأطلقت عليه لفظ « العادة » . ولا يمكن أن يكون غير ذلك لأنه يصدر عن كائن حى . فإذا أراد القارىء بدلا من أن يلاحظ نفسه أن يسير وفق المنهج الموضوعى أى أن يلاحظ وأن يفسر على ضوء ما يشعر به هو ، حاله غيره ممن لم يفكروا قط فى شخصياتهم ( وهم الكثرة العظمى من بنى البشر) لرأى أن الرأى السالف صحيح وأن الشخصية الحقيقية تتضح لا بالتفكير بل بالأفعال .

فلنر الآن إلى الشخصية الزائفة أو الصناعية . ذلك أن عالم النفس إذا حاول ، كما يقول ، أن يدرك نفسه بوساطة الملاحظة الداخلية ، كان فى هذا يحاول المحال . لأنه إذا ما بدأ فى هذه المهمة فإما أن يقتصر على الحاضر فلا يكاد يتقدم خطوة واحدة وإما أن يمد تفكيرة نحو الماضى فيؤكد ثبات نفسه منذ سنة بل منذ عشر سنين . فلا يصل بهذا إلا الى إجهاد نفسه فى اصطناع أسلوب العلماء فى التعبير عما يعرفه أى فلاح قدر معرفته إياه. فعالم النفس باصطناعه الملاحظة الداخلية لا يستطيع أن يقف إلا على ظاهرات عابرة . ولست أعرف أحداً استطاع أن يرد على الآراء الصائبة التى أدلى بها هيوم حين قال : «إننى من ناحيتى إذا ما تغلغلت فى أعماق ما أسميه بالذات ، اصطدمت أبداً بهذا المدرك(١)

(١) «المدرك» فى لغة هيوم يقرب مما نسمية اليوم حالة من حالات الشعور

الجزئى أو ذاك ، بالبرودة أو الحرارة أو الضوء أو الظل ، أو الحب أو الكراهية ، أو اللذة أو الالم . ولست أستطيع البتة أن أفاجىء ذاتى خالصة من أى مدرك . ولست ألاحظ أبداً إلا المدرك .. فإذا خيل لأحد ، بعد التفكير العميق الخالص من الأحكام السابقة ، أن لديه فكرة أخرى عن ذاته ، لم يكن بد من أن أعلن عجزى عن مواصلة النقاش معه طويلا . وكل ما يمكن أن أوافقه عليه هو أنه قد يكون مصيباً قدر ما أنا مصيب وأن طبائعنا فى هذه الناحية تختلف اختلافاً جوهرياً . ولعله يدرك شيئاً بسيطاً دائماً يسميه « ذاتاً » . أما أنا فموقن من ناحيتى أن ليس لدى ذات لها هذا الكيان » ولقد قيل منذ أيام هيوم «إننا بوساطة الجهد والمقاومة نشعر أن كلا منا علة» . وليكن هذا . فكل المدارس تقريباً تسلم بأن الذات تتميز على هذا المنوال عن غير الذات ؛ غير أن الشعور بالجهد ليس حالة بسيطة كغيرها من حالات الشعور أى شعوراً بالجهد العضلى الخالص الذى يؤدى إلى أى فعل من الأفعال . فإذا أردنا بوساطة التحليل أن ندرك كلا مؤلفاً مثل الشخصية أو أن نلجأ إلى الحدس ، الذى لا يكاد يستغرق بضعة ثوان ، لاستخلاص مركب كالذات لأثرنا بهذا مسألة متناقضة العناصر . هذا الى أن علماء النفس يسيرون فى الواقع وفق طريقة تخالف تلك. فقد اعتبروا حالات الشعور أعراضاً واعتبروا الرباط الذى يمسك بينها أساساً . وهذه الأرضية الخافية بمختلف الأسماء التى تطلق عليها مثل الوحدة والهوية والتواصل هى الذات الحقيقية . ومن الواضح رغم هذا أننا لا نظفر عند ذلك إلا بأمر مجرد أو فى عبارة أدق برسم تخطيطى . ذلك لأننا نكون قد استبدلنا بالشخصية الحقيقية فكرة عن الشخصية . وهذا شىء غير ما نبحث عنه تماماً . لأن فكرة الشخصية تشبه كل الكليات الأخرى التى نصل إليها ( مثل الحساسية والإرادة ☆الخ) . غير أنها لا تشبه الشخصية الحقيقية إلا بقدر ما يشبه رسم المدينة المدنية نفسها ، وكما أنه فى حالات انحراف الشخصية تقوم فكرة واحدة مقام الشىء المركب فتنشأ الشخصية الوهمية المنقوصة . فإن عالم النفس يتخذ تخطيط الشخصية بدلا من الشخصية الواقعية ثم يشرع فى الاستدلال والاستقراء والقياس والقطع فى هذا الإطار الخاوى الفارغ ومن الواضح أن هذا التقريب لا يتحقق الا بتغيير ما يستلزم التغيير وبكثير من القيود التى يستطيع أن يكشف عنها القارىء بنفسه .

والخلاصة إن تفكير المرء فى « ذاته » يدفعه الى اتخاذ موقف صناعى يغير من هذه الذات . ويدفعه الى اتخاذ فكرة مجردة بدلا من الحقيقة الواقعة . فالذات الحقيقية هى الذات التى تحس وتفكر وتعمل دون أن تشاهد نفسها لأنها بطبيعتها وتعريفها « ذات » ولا يمكن أن تصير موضوعاً إلا إذا أنقصها الاختزال وطابقت طرائق النظر العقلى الذى يغير فيها ويقتطع منها .

عن ريبو : أمراض الشخصية ص ٨٦ — ٩٠